واقع التّصوف عند ابن عربي بين التّصريح والتّلميح.

The reality of Sufism At Ibn Arabi Between permission and hinting dualism

بن عدة فاطمة
المركز الجامعي أحمد زبانة غليزان. الجزائر
benadda.fatima@cu-relizane.dz

تاريخ الاستلام: 2019/ 10/09 تاريخ القبول: 2019/ 11/ 11 تاريخ النّشر: 2020/01/ 05

ملخص البحث

يحمل التّصوف الإسلامي بين طياته نفوسا غرقت في محبة اللّه *وفنيت* فيه، والنّاتج من ذلك الفناء في الذّات الإلهية هو تلك الكلمات، والعبارات، والأشعار التي صدحت بها حناجرها وهي تناجي الملكوت المطلق، مرّة في شهود، وأخرى في فناء، وأخرى في ذكر خاص. هي جولة في عالم ابن عربي الذي كان ديدنه بلوغ عالم الحضرة الإلهية للعروج إلى العالم العلوي عالم الذّات المطلقة، حتى جاءت لغته متراكمة المعاني عبّر بها في شهوده جاعلا من الوجود بكله دليل جلال وجمال الذّات المقدسة التي كانت ذاته تحوم حول عبادتها بكمالها.

الكلمات المفتاحية: التّصوّف، التّصريح، التّلميح، الشّهود.

SUMMARY

The Islamic mysticism carries souls that have sunk in the love of God and perished in it.The result of that annihilation in the divine self is those words, phrases, and poems that have been proclaimed by their throats, which are uttering the absolute kingdom, once in witnesses, once in a courtyard, and another in a special mention. Is a tour of the world of IbnArabi, which did not reach the world of the divine presence to reach the world of the absolute world of self, until the language came accumulated meanings through it in his witnesses, making the existence of all the evidence of the majesty and beauty of the holy self that was hovering around the worship of the whole.

Key words: Sufism, statement, hint, witnesses.

نقف في هذه الصّفحات من هذا التّراث نتصفح فيها بعض النّفوس الإنسانية التي غرقت في محبّة اللّه حتى فنيت فيه وأعرضت عمّا سواه، ونستشفّ منها بعض الدّوافع والنّوازع التي أخرجت النّفوس الإنسانية من صخب الحياة المادية وقذفت بها في أحضان الحياة الرّوحية، وجعلت من أصحابها صورا صدّاحة بأناشيد المحبّة الإلهية وطامحة إلى التّحليق في سماء الحقيقة العلية، والاستضلال بظل الذّات القدسية في وكر الأزلية. إنه بحق الصّوفي الذي جعل من العبادة الحقّة هي ما تحقّق فيها الافتقار المطلق من جانب العبد، والغنى المطلق من جانب الحق. هي وقفة إجلال نقفها عند فكر رجل قيل عنه أنه مربّي العارفين إنه ابن عربي الحاتم الطائي الأندلسي(560هـ-638هـ).

1- شعره ونثره:

يعدّ ابن عربي من طبقة الكتّاب العظام، ويمتاز نثره بميزة عجيبة:هي أنه لا يشغلنا بالألفاظ وإنما يشغلنا بالمعاني، ففي كل صفحة من كتبه معركة عقلية، فالقوة البيانية عنده قوة فكر لا قوة تهويل"[1]فالرّجل وهب بسطة في الفكر والخيال، وعمقا في الحس الرّوحي، وراض اللّغة على الطّواعية للرموز والإشارات، فهو من النّوع الذي تقهره الفكرة، وتشكل ضغطا نفسيا عليه، فيضطر إلى الكتابة للتّفريج عن نفسه، شأن من يلتمس صديقا يحادثه فيما يموج في داخله من أفكار.

فالرّجل لا يصطنع النّثر الفني إلا في موقف الواعظ أو الخطيب، ففي مقدمات كتبه وفي خطبه التي يحدث أنه ألقاها في حضرة الرّسول، نراه يوشي كلامه بأكثر فنون البديع من سجع، وتورية، وجناس، وطباق.يعتبر كتابه "ترجمان الأشواق" من الكتب التي قيل عنها أنها ليست من تأليفه، بل هي رسائل طلب منه أن يبلّغها للنّاس؛لأنه أثر عن العارف قوله:". وما حملني على أن أعرف بمنزلته إلا أني رأيت الحق في النّوم مرتين وهو يقول لي:"انصح عبادي، وهذا من أكبر نصيحة نصحتك به واللّه الموفق وبيده الهداية"[2]فهو بحق من النّثر الفني، وإليك هذا الشّاهد الذي هو من أدل ما عرف به الرّجل من خفة الرّوح يقول:"كنت أطوف ذات ليلة بالبيت، فطاب وقتي وهزّني حال كنت أعرفه، فخرجت من البلاط من أجل النّاس، وطفت على الرّمل فحضرتني أبيات أسمع بها نفسي ومن يليني لو كان هناك أحد فقلت:

ليت شعري هل دروا أي قلب ملكوا

وفؤادي لو درى أي شعب سلكوا

أتراهم سلموا أم تراهم ملكوا

حار أرباب الهوى في الهوى وارتبكوا[3]

إنه طراز من نثره الفني وهو نثر مقبول، لا تكلّف فيه ولا افتعال، لأن الرّجل ممّن إن أسهب أتعب، وإن أوجز أعجز، وإن أفصح أوضح؛أما شعره فهو فن قائم بذاته وهو الشّعر الصّوفي، وقد ترك من الشّعر تركة ثقيلة فله ديوان ضخم، وكتاب "الفتوحات المكية" في طياته مقطوعات شعرية، إذ نكاد نلمس في هذا الدّيوان نفحة من الشّوق إلى عالم المجهول، وما نلمسه في شعره هو غلبة الملمس الوجداني، إلا أن أكثريته معقّد وغامض.وهذا الشّاهد من أروع الأبيات:

إن لي ربا كريما أجده كالذي تعلم أو تعتقده

هو مني وأنا منه به ولذا في كل حال أجده

كل من نال الذي قد نلته من وجود قد تعالى مشهده[4]

يظهر لنا من خلال هذه الأبيات أنه قد أبدع في التّلميح وآثره على التّصريح، بحيث جعل منه أسلوبا يخاطب به الذّائق الواجد من الحبّ الإلهي مثل ما يذوق وما يجد، وفي الأبيات أيضا لمسة وجودية وهي قضية جعل العارف يحوم ويدندن حولها طيلة حياته، وفي جل مؤلفاته؛ثم إن شعراء الصّوفية هم من أصحاب الأذواق والمواجيد حين عبّروا عن أذواقهم ومواجيدهم في حبهم الإلهي أو النّبوي، قد التمسوا ألفاظهم وعباراتهم من معجم الشّعر الغزلي والخمري"[5]ولعل خير ما نتخذه دليلا على هذا أبياته التي يقول فيها:

ذبت اشتياقا ووجدا في محبتكم فآه من طول شوقي آه من كمدي

يدي وضعت على قلبي مخافة أن ينشق صدري لما خانني جلدي

مازال يعرفها طورا ويحفظها حتى وضعت يدي الأخرى تشد يدي

للأمانة فابن عربي جعل من اللّغة الصّوفية لغة ثرية بمعاني يصعب على من لم يكن له ذوق أو مواجيد صوفية أن ينتهي إلى معناها، فالعارف كان يعيش في فضاء معرفي خلقه بنفسه فالصّوفي يذوب من الشّوق "الذي هو حركة النّفس إلى تتميم ابتهاجها، بتصور حضرة محبوبها، وهو من لوازم المحبة وذاتيتها، إذ النّفس أبدا تحن إلى من تحب"[6]ثم ينتهي به الشّوق إلى الوجد فالواجدون ثلاثة أصناف:"فصنف منهم وجدُهم مصحوبهم إلا أن يعارضهم في الأحايين دواعي النّفوس والأخلاق البشرية، ومزاج الطبع فيكدر عليهم الوقت ويتغير عليهم الحال، والصّنف الثاني وجدُهم مصحوبهم، إلا أنه إذا طرأ عليهم ما يشاكل وجدهم من طوارق السّمع، تنعموا بذلك وعاشوا وانتعشوا ثم يتغير عليهم الوجد، والصّنف الثالث وجدهم مصحوبهم على الدّوام، وقد أفناهم ذلك الوجد لأن كل واجد قد فني بما وجد"[7]كل هذا يتم داخل القلب"الذي هو من العارف أو الإنسان الكامل بمنزلة محل فص الخاتم من الخاتم لا يفضل شيء عن محل فص الخاتم، بل يكون المحل على قدره أي على مقدر الفص. وفي تشبيه القلب محل الفص إشارة إلى أن المقصود من الإنسان القلب لكونه محلا للتّجليات الإلهية، فالتّجليات الواقعة فيه بمنزلة النّقوش الواقعة في فص الخاتم"[8]قلب الصّوفي محلّ تلقّي الفيض الرّحماني، تنعكس عليه وتترسّخ فيه، لتظهر حينا وتخفى حينا آخر.

2- النّظم عنده بين التّصريح والتّلميح:

يعمد الصّوفي في تعبيره عن تجربته الصّوفية إلى التّستّر والإخفاء، والغموض بالاعتماد على أسلوب الإشارة والتّلويح"وهو يخاطب الذّائق الواجد من الحبّالإلهي مثل ما يذوق ومثل مايجد، كما أنه آثر الإشارة على العبارة لما تمتاز به الإشارة من اللّطافة والرّقة، والدّقة التي تجعلها أكثر اتساعا للحقائق الرّوحية والدّقائق العلية من العبارة"[9]ولعل من أهم منظومات ابن عربي هو كتاب الفتوحات المكية الذي تظهر فيه الأبواب هي الأصل، والمنظومات تابعة لهوقد يجعل النّظم أصل الباب، كالذي وقع في الباب التّاسع والخمسين وخمسمائة(559) في معرفة أسرار وحقائق من منازل مختلفة، فإنه استهله بهذه الأبيات:

لله في خلقه نذير يعلمهم أنه البشير

وهو السّراج الذي سناه يبهر ألبتابنا المنير

عينه في الوجود فردا تجري بأنفاسه الدّهور

يا واحدا مجده تعالى ليس له في الورى نظير

ليس لأنواره ظهورا إلا بنا إذ لنا الظّهور[10]

ولعل لمعاني هذه القطعة الشّعرية علاقة بوحدة الوجود التي ما فتئ ابن عربي ينادي بها، إذ شغلت جل أفكاره ومؤلفاته خاصة "فصوص الحكم"، ذلك أن"البحث في الحقيقة الإلهية متجلية في أكمل مظاهرها في صور الأنبياء عليهم السّلام"[11]كما تنقسم منظومات ابن عربي في الفتوحات إلى قسمين:قسم تغلب عليه النّفحة الوجدانية وهوقليل، وقسم يغلب عليه التّعقيد وهو الأكثر"لأن التّلويح سبيل إلى كتمان الأسرار الإلهية وصيانتها ضنّا بها عن أن يبيحها الواقف عليها، والذّائق لها لمن ليس من أهلها ولا خليقا بها"[12]يقول ابن عربي في ترك الكرامات:

ترك الكرامة لا يكون دليلا فاصغ لقولي فهو أقوم قيلا

إن الكرامة قد يكون وجودها حظ المكرم ثم ساء سبيلا

فالكرامة فضل من اللّه يؤتيه لمن يشاء، لكنها قد تكون وابلا ونقمة لمن لم يحسن التّعامل معها لتجره إلى سوء السّبيل، وفي سائر مؤلفات ابن عربي تتراءى لنا كثرة المنظومات الشّعرية كالذي نقرأه في رسائله بالأخص في "كتاب الياء" الذي يقول فيه:

انظر إذا ما قلت هو أو قلت لها وتفطن الخريت بي وتنبها

وأنا يولد منهما هي والذي تعطي أنا تجد الدّنى تالها[13]

فإذا جئت لتقف على مراده تشتّت ذهنك ودخلت عالم الهو والهي، وهو عالم الصّوفي ابن عربي فمرة يقصد الذّات القدسية المطلقة وأخرى الذّات المقيدة.

3- اللّغة:

إنها قصة الصّوفي الأندلسي محي الدّين ابن عربي، التي تعد بحق ترجمة ذاتية لأشواق صاحبها، وأذواقه ولرياضته، ومواجيده، ولمشاهداته، وفتوحاته التي رمته في كنف العزلة التي هي "طبع صوفي، فلا يكاد المتصوف يقطع مسافة في منازل السّائرين حتى تتعشق روحه العزلة وتتجافى عن المخالطة، ويعيش رحلته الوجدانية الخاصة في عمق وحدته، وهذه الوحدة أو العزلة العفوية لها مردودان:الأول أنها تمكن الصّوفي من اكتشاف طريقه الخاص ومن عيش تجربته الفردية، والمردود الثاني للعزلة هو تفرد الصّوفي بلغته الخاصة النّاتجة عن تجربته المخصوصة"[14] للعزلة حضور خاص في حياة الصّوفي، لما لها صقل روحه ولغته بطابع التّميّز.

لا يخفى أن ابن عربي ورث الكثير عن شيوخ الطرق الصّوفية على الرّغم من طريقته الأكبرية، ويرجع السّبب في ذلك أنه في الأساس من العارفين أهل المكاشفة، الذين يعلمون أن حدود التّعليم تقف عند أبواب الفتوح والمكاشفة هما البداية لشخصية جديدة ولهوية جديدة ينفر بها السّالك عن عموم المريدين؛ثم إن الحروف هي أصول الكلمات في اللّغة، وهي الأصوات التي تتألف مكونة كلمة، والكلمات بدورها تتألف مكونة الجملة "ولم يكتف المتصوفة بالبحث عن دلالة هذه الحروف، بل طمحوا إلى اكتشاف أسرار الوجود، وأسرار الخلق من خلال تأملات العلاقات المتشابكة بين القول الإلهي المتمثل في الفعل "كن"، وبين الفعل الإلهي المتمثل في إيجاد أعيان الممكنات، وربطوا بين الأسماء الإلهية وحروف اللّغة من جهة، وبينها وبين مراتب الوجود من جهة أخرى"[15]ونستدل على هذا بأبيات شعرية لابن عربي فيها تتجلى قيمة الحروف ومراتبها، والحركات وعلاقتها بالأسماء الإلهية يقول:

إن الحروف أئمة الألفـــاظ شهدت بذلك السّنُ الحفـــاظ

دارت بها الأفلاك في ملكـــوته بين النّيام الخرس والأيقـــــاظ

ألحظتها الأسمـــــاء من مكنـــــونها فبدت تعز لذلك الإلحـــاظ

وتقول لولا فيض جودي مابدت عند الكلام حقائق الألفاظ[16]

فابن عربي يسير على ديدن الحفاظ وهم اللّغويون في أن مجموع الحروف يكون لنا كلمة، إلا أنه تربطها علاقة مع الأفلاك في الملكوت الأعلى دونما تتنبه لها العقول المتيقظة، ولا النّياممفتخرة بالتّجلي الدّائم الذي لم يزل ولا يزال عند الكلام فيه ظهرت الألفاظ؛وضمن الفصل يربط ابن عربي الحروف بمراتبها وأفلاكها التي هي سبعة،

وطبائعها من حرارة ويبوسة ورطوبة وبرودة وهي"ترجع مع الحار حارة، ومع الرّطب رطبة، ومع البارد باردا، ومع اليابس يابسة:على حسب ما تجاوره من العوالم"[17] وكأن الرّجل يرسم لنا لوحة للكون والأفلاك والحروف تسبح في مراتبها، ولعل حاصل أمر الحروف وفي علاقتها هذه أن"ثمرته تصرف النّفوس الرّبانية في عالم الطبيعة بالأسماء الحسنى، والكلمات الإلهية النّاشئة عن الحروف المحيطة بالأسرار السّارية في الأكوان"[18]تتجلى قيمة الحروف في كل ما ذكر في قول لابن عربي يفصح فيه إفصاحا تاما بقوله:"اعلم وفقنا اللّه وإياكم أن الحروف أمة من الأمم، مُخاطبون ومكلفون وفيهم رسل من جنسهم، ولهم أسماء من حيث هم ولا يعرف هذا إلا أهل الكشف من طريقنا، وعالم الحروف أفصح العالم لسانا"[19]وقد ذكر ابن عربي ثمانية أقسام للحروف، إلا أن الأهم فيها هي قسم أوائل السّور التي كنّاها "الخاصة" مثل التي يعقد لها تفسيرا بديعا يلهم الألباب بقوله:"الألف منإشارة إلى التّوحيد، والميم للمُلك الذي لا يهلك، واللّام بينهما واسطة لتكون رابطة بينهما"[20]ولو تتبعنا تفسيرها لرأينا كلاما طيبا من قلب طيب؛هو ذا منطلق اللّغة عند ابن عربي الحروف في مراتبها، وكل هذا عنده مرتبط بالوجودالذي طريقه الشّهود؛ إذا فابن عربي "هو وارث للتّجربة الصّوفية بكل وجوهها، ووارث للغة الصّوفية بكل مفرداتها"[21] يظهر الميراث الصّوفي لابن عربي في لغة ذات وجهين، وتجربة صقلتها الأيام.

4- الشّهود:

فالشّهود "هو الحضور وقتا بنعت المراقبة، ووقتا بوصف المشاهدة، فما دام العبد موصوفا بالشّهود والرّعاية، فهو حاضر فإذا فقد حال المشاهدة والمراقبة خرج من دائرة الحضور فهو غائب"[22]يغيب المتصوف في الحضرة الإلهية، وتستغرق روحه لكي تغترف من الفيوضات السّبوحية، منقطعة عن الذّات والملذّات، فابن عربي هو رجل المشاهدة في الدّرجة الأولى، وأنّ مشاهده تتوالى لا تكاد تنقطع، تتوالى إلى درجة لا يمكننا معها أن نفصل مشاهداته بكتاب يستقل هن آرائه، وكيف تنفصل المشاهد عن الآراء، وكل آرائه مستقاة من مشاهده.

وهذه المشاهد هي في الأصل صعبة الإدراك ولا تحتمل المجادلة، ويجب سترها على من لم يبلغ في التّذوق مبلغا يوصله الاستغراق في الجمال المطلق للذات القدسية حيثيقول:"وهذا الفن من الكشف والعلم يجب ستره عن أكثر الخلق لما فيه من العلو فغوره بعيد، والتّلف فيه قريب"[23]تتفجر العلوم والمعارف في الحضرة المقدسة عند ابن عربي وكل حسب مقامه، لأن العلوم في هذا الفن منازل والمنزل بالتّذوق والرّياضة إذ يقول:"ثم لتعلم أن الإيمان المؤيد بالأعمال الصّالحة أقسامه في يد الحضرة المقدسة، فيرى عند إقامته فيها تفجر أنهار العلوم والمعارف والحكم والأسرار. في هذا المقام الأقدس فهذه حضرة الإقامة، والثانية حضرة النّور، والثالثة حضرة العقل، والرّابعة حضرة الإنسان، وحضرة الإنسان أتم الحضرات وجودا"[24]ولا يغيب عنك أن الوجود في هذه الحضرات بالتّعلق، لكن له فيوضات ربانية مختلفة"فحضرة الإقامة إذا نزلها العبد شرب من نهر الدّيمومة، وأنتج له هذا المقام بهذه الحضرة مقام الخشية الرّبانية والرّضا بالإله، فإن الحضرة الإلهية تفتح حضرة أخرى"[25]يأخذ الصّوفي خوفه وخشيته من مقام طالما اعتبره يحقّق له القرب، والفوز بالرّضا، ومجموع هذه الشّواهد"هي التي تبقى في قلب العبد بعد الانفصال من مقام المشاهدة، وبه تقع اللّذة للعارفين فيتردد الخطاب فيهم من وجودهم لوجودهم"[26]تتوالى شواهد الصّوفي من مقام إلى مقام، تعزّزها اللّذة والذّوق، فظهر في لغة يعجز عن فهمها العوام، سوى من تذوّق مواجيدهم.

5- وحدة الوجود:

إن نظرة ابن عربي إلى الوجود هي التي أنتجت لنا مذهب وحدة الوجود "pantheism" في التّصوف الإسلامي، وهو مذهب "يقوم على دعائم ذوقية أساسا"[27] سيّد التّجربة لديه هو لذة التّذوّق في مشاهداته، يقول في الفص

الآدمي من كتابه "فصوص الحكم:"فإن رؤية الشّيء نفسه بنفسه ماهي مثل رؤيته نفسه في أمر آخر يكون له كالمرآة، فإنه يظهر له نفسه في صورة يعطيها المحل المنظور فيه مما لم يكن يظهر له، من غير وجود هذا المحل ولا تجليه له"[28]فابن عربي يرى أنه لا وجود على الحقيقة إلا اللّه، فهو عين أعيان الموجودات العينية، ثم إنّه لما كان الأمر على ما كان من ظهوره على صورته أحالنّا تعالى في العلم به على النّظر في الموجودات فعرفنا آياته فيه فاستدللنّا بنا عليه؛ولعل الفكرة تتضح بقوله:"ولولا سريان الحق في الموجودات بالصّورة ما كان للعالم وجود، كما أنه لو تلك الحقائق المعقولة ما ظهر حكم في الموجودات العينية، ومن هذه الحقيقة كان الافتقار من العالم إلى الحق في وجوده:

فالكل مفتقر ما الكل مستغن هذا هو الحق قد قلناه لا نكني

فإن ذكرت غنيا لا افتقار به فقد علمت الذي بقولنا نعني

فالكل بالكل مربوط فليس له عنه انفصال خذوا ماقلته عني[29]

"فهذه المخلوقات ماهي إلا فيوضات منه على الصّور الممكنة فتصير موجودة وهمًا في ذواتها، وفعلا حقيقتها، فالأعيان المعدومة كانت في العدم ففاض عليها الحق فكانت موجودة وإن وجود كل شيء هو عين وجود الحق، إذ ليس ثمة وجودان:واجب وممكن، بل إن عين الواجب هو عين الممكن"[30]ويبين ابن عربي الحكمة من خلق الخلق من خلال شرحه للحديث القدسي:"كنت كنزا مخفيا لم أعرف فخلقت الخلق فبه عرفوني" بأن الحق تعالى شاء أن يظهر للخلق عامة والإنسان خاصة ليعرف وليرى نفسه في صورة تتجلى فيها صفاته وأسماؤه، أو بعبارات أخرى شاء الحق أن يرى تعينات أسمائه في مرآة العالم أو الوجود الخارجي فظهر في الوجود ما ظهر، وعلى النّحو الذي عليه وكشف بذلك الكنز المخفي الذي هو الذّات المطلقة المجردة عن العلاقات والنّسب، ولكنه لم يكشف عنها في إطلاقها وتجردها بل في تقييدها وتعيينها"[31]وهو كلام ينم عن عقل وذوق نفس تشربت المعرفة على شتى أنواعها، حتى غدت تُصدر عبارات تتعلق بالذّات القدسية منطلقة من الكلام الإلهي، فالخلق في عين ابن عربي هو"ذلك التّجلي الإلهي الدّائم الذي لم يزل ولا يزال، وظهور الحق في كل آن فيما لا يحصى عدده من الصّور، وهذا الظّهور مع كثرته ودوامه لا يتكرر أبدا، لأن نسبة الذّات الإلهية إلى كل صورة من صور الوجود غير نسبتها إلى الصّور الأخرى"[32]إذا هو تجلي للذات المطلقة التي أوجدت خلقا، به عرفت من حكمة مفادها عرفت ربي بربي ولولا ربي ما عرفت ربي.

ولابن عربي نظرية في "الإنسان الكامل" الذي يرى أنه لولاه ما وُجد العالم كله "وأن الإنسان الحيوان من جملة العالم المسخر له، وأنه يشبه الإنسان الكامل في الصّورة الظّاهرة لا في الباطن من حيث الرّتبة، كما يشبه القرد الإنسان في جميع أعضاءه الظّاهرة، فتأمل درجة الإنسان الحيوان من درجة الإنسان الكامل، واعلم أنك العين المقصودة، فما وجدت الأسباب إلا بسببك لتظهر أنت، فما كانت مطلوبة لأنفسها فإن اللّه لما أحب أن يُعرف لم يمكن أن يعرفه إلا من هو على صورته، وما أوجد اللّه على صورته أحدا إلا الإنسان الكامل"[33]من كلام الشّيخ فالإنسان الكامل أو الحقيقة المحمدية وُجد لأجلها العالم، ثم إن الذّات الإلهية لما أرادت أن تُعرف لم يكن له إلا أن يُعرف بذات تتصف بالكمال الخَلقي والخُلقي؛ثم إن الفروق بين الإنسان الكامل والحيوان واضحة وجلية لمن كان له سمع وعقل شهيد، فالعلم للإنسان الكامل يكمن في" تصريفه الأسماء الإلهية التي أخذ قواها لما حداه الحق عليها"[34]ثم الرّزق فإن "الكامل له رزق إلهي لا يناله الإنسان الحيوان، وهو ما يتغذى به من علوم الفكر، الذي لا يكون للإنسان الحيوان والكشف والذّوق والفكر الصّحيح"[35]فإذا لم يكن للإنسان من هذه الكمالات فإنه في مرتبة دونها التي هي الحيوانية.

ثم يأتي الكلام في أن "خلق الحق الإنسان الكامل على صورته، ونصبه دليلا على نفسه لمن أراد أن يعرفه بطريق المشاهدة لا بطريق الفكر، الذي هو طريق الرّؤية في آيات الآفاق وهو قوله تعالى :"سنريهم آياتنا في الآفاق"، ثم لم يكتف بالتّعريف حتى أحال على الإنسان الكاملالذي نصبه دليلا أقرب على العلم بطريق الكشف والشّهود"[36]ولعل الكلام كله عن الإنسان الكامل الذي لا أكمل منه قطب الأرواح وروح الموجودات، في نظر ابن عربي راجع إلى الذّات النّبوية البشرية رغم كل ما اتصفت به من كمالات، التي يرى فيها ابن عربي أنها انعكاس حقيقي وأكيد لمرآة الذّات المقدسة، فهي طريق العلم به لمن أراد بالمشاهدة لعموم السّادة والفكر لعموم العلماء.

6- وحدة الأديان:

يعتبر ابن عربي حامل لواء التّسامح الدّيني والتّكامل البشري، خاصة عند من أراد أن يعبر عن مثالية التّسامح الصّوفي الغالب على عموم الصّوفية، لأنهم كانوا ينشدون الجمع لا التّفرقة؛ولعل هذا ما أراد ابن عربي من خلال أبياته التي شغلت عموم المريدين وحتى المبتعدين عن حضرة الألفة بين بني البشر.يقول:

لقد صار قلبي قابلا كل صورة فمرعى لغزلان ودير لرهبان

وبيتٌ لأوثان وكعبة طائف وألواح توراة ومُصحف قرآن

أدين بدين الحبّأنى توجهت ركائبه، فالحبّديني وإيماني[37]

فابن عربي ذكر في البيت الأول كلمة القلب وسمى كذلك لأنه يتقلب، فهو يتنوع بتنوع الواردات عليه وتنوع الواردات بتنوع أحواله، وتنوع أحواله لتنوع التّجليات الإلهية لسره، وهو الذي كنى عنه الشّرع بالتّحول والتّبدل في الصّور، ثم إن هذا القلب صورة بيت الأوثان، لما كانت الحقائق المطلوبة للبشر قائمة به التي يعبدون اللّه من أجلها فسمي قلبه كعبة، ثم سمى هذا الدّين بدين الحبّودان به ليتلقى تكليفات محبوبه بالقبول، والرّضى، والمحبة، ورفع المشقة والكلفة فيها بأي وجه كانت"[38]ولعل للأمر تعلقا بمسعى الشّيخ في مجال تفسير القرآن نحو شرح الغامض وإظهار الباطن، إذا تعلق الأمر بقوله تعالى:"وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه"[39]"فكلمة قضى عندنا بمعنى حكم، وعند من لا علم له من علماء الرّسوم أمر، وبين المعنيين في التّحقيق بون بعيد"[40]فالمفردة في المعجم لها معنى لكن بتسييقها تحمل معنى ثان، ضف إلى ذلك الحسّ اللّغوي والصّوفي لابن عربي جعله يعطينا هذا الملمح اللّطيف، ثم يحيلنا الشّيخ إلى أمر آخر يقول فيه:"ما عبد اللّه قط من حيث ماهو عليه، وإنما عبد من حيث ماهو مجعول في نفس العبد، فتفطن لهذا السّر فإنه لطيف جدا"[41]أي يعبدون اللّه كما يتصورونه في ذواتهم، وكما وقر في عقولهم وقلوبهم.

الهوامش

[1] زكي مبارك: التّصوف الإسلامي، ج1، مطبعة الرّسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1938، ص: 173.

[2] نصر حامد أبو زيد: هكذا تكلم ابن عربي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2002، دون طبعة، ص: 131.

[3] ابن عربي: ترجمان الأشواق، اعتنى به عبد الرّحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1، 2005، ص: 26.

[4] ابن عربي: ترجمان الأشواق، ص: 28.

[5] محمد مصطفى حلمي: الحبّالإلهي في التّصوف الإسلامي، دار القلم، مصر، د ط، 1960، ص: 8.

[6] رفيق العجم: موسوعة مصطلحات التّصوف الإسلامي، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، 1999، ص: 513.

[7] نفسه، ص18/10.

[8] نفسه، ص769.

محمد مصطفى حلمي: الحبّالإلهي في التّصوف الإسلامي، ص: 16.[9]

زكي مبارك، التّصوف الإسلامي، ج1، ص: 197 .[10]

ابن عربي: فصوص الحكم، تعليق أبو العلا عفيفي، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، د ط، ص: 23.[11]

محمد مصطفى حلمي: الحبّفي التّصوف الاسلامي، ص: 16.[12]

ابن عربي: رسائل ابن عربي، وضع حواشيه محمد عبد الكريم النّمري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، سنة 2001، ص: 110.[13]

سعاد الحكيم: ابن عربي ومولد لغة جديدة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنّشر، بيروت لبنان، ط1، سنة 1991، ص: 35.[14]

نصر حامد أبو زيد: فلسفة التّأويل عند محي الدّين ابن عربي، دار التّنوير، دار الوحدة، بيروت، لبنان، ط1، سنة 1983، ص: 297.[15]

ابن عربي: الفتوحات المكية، السّفر الأول، تح عثمان يحي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، سنة 1985، ص: 231.[16]

نفسه، ص: 233.[17]

ابن خلدون: المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د ط، ص: 413.[18]

ابن عربي: الفتوحات المكية، ص: 260.[19]

نفسه، ص274.[20]

سعاد الحكيم: ابن عربي ومولد لغة جديدة، ص: 35.[21]

رفيق العجم: معجم مصطلحات التّصوف الإسلامي، ص: 509.[22]

ابن عربي: رسائل ابن عربي، ص: 18.[23]

نفسه، ص22.[24]

نفسه، الصّفحة نفسها.[25]

ابن عربي: الفتوحات المكية، ص: 203 .[26]

محمد علي كندي: في لغة القصيدة الصّوفية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، سنة 2010، ص: 68.[27]

ابن عربي: فصوص الحكم، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، د ط، سنة 1990، ص: 1.[28]

ابن عربي: فصوص الحكم، ص: 9.[29]

محمد علي الكندي: في لغة القصيدة الصّوفية، ص: 69.[30]

ابن عربي: فصوص الحكم، ص: 68.[31]

أبو العلا عفيفي: شرح فصوص الحكم، ص: 28.[32]

محمود محمود الغراب: الإنسان الكامل أو القطب الغوث المفرد من كلام الشّيخ الأكبر محي الدّين ابن عربي، مطبعة الكاتب العربي، ط2، سنة 1990، ص: 8.[33]

نفسه، ص: 09.[34]

محمود محمود الغراب: الإنسان الكامل أو القطب الغوث المفرد من كلام الشّيخ الأكبر محي الدّين ابن عربي، ص: 09.[35]

نفسه، ص14.[36]

ابن عربي: ترجمان الأشواق، ص: 62.[37]

نفسه، ص: 62.[38]

سورة الإسراء[الآية: 23].[39]

ابن عربي: الفتوحات المكية، ج3، ص: 282.[40]

ابن عربي: الفتوحات المكية ، ج7 ، ص: 336[41]